مدى فعالية برنامج العلوم الإسلامية في تكوين الفقهاء

الدكتور/ محمد مقبول حسين

أستاذ التعليم العالي ومدير مخبر بحث الشريعة

– جامعة الجزائر –

تمهيد:

قبل أن نتكلم عن برنامج العلوم الإسلامية رأينا من المناسب أن نذكر معنى الفقه والفقهاء.

والمراد من كلمة الفقه في عصر النبوة كانت تطلق على الفهم المطلق للأحكام الشرعية والدليل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم :« من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » [1] كما تدل عليه النصوص القرآنية كقوله تعالى:﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾.[2] وأيضا قوله تعالى على لسان قوم شعيب : ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ﴾. [3]

والأحكام الشرعية في ذلك العصر كانت عامة تشمل أحكام الاعتقاد وأحكام الأخلاق وأحكام العبادات والمعاملات.

واستمر هذا الإطلاق حتى عصر الأئمة المجتهدين، فعرفه الإمام أبو حنيفة رحمه الله بأنه : « معرفة النفس ما لها وما عليها »، فكان هذا التعريف بمثابة تتويج لمفهوم الفقه قبل ذلك، كما كان هذا التعريف ملائما لعصر الإمام أبي حنيفة الذي لم يكن الفقه قد استقل عن غيره من العلوم الشرعية.

ولما تمايزت العلوم وبدأ ظهور التخصص بين العلماء في العلوم ضاقت دائرة الفقه وأصبح يبحث في نوع من الأحكام وهي الأحكام الشرعية العملية التي تشمل أحكام العبادات وأحكام المعاملات دون الأحكام الأخرى كأحكام الاعتقاد وأحكام الأخلاق وغيرها... وعندئذ زاد علماء الحنفية كلمة « العملية » لتصبح دائرة الفقه أضيق من الدائرة التي عرفه بها الإمام أبو حنيفة.

وتبع هذا التقييد في مفهوم الفقه تخصيص مصطلح الفقهاء بمن يعرف هذا النوع من العلم ويبحث فيه، ولعل أشهر تعريف للفقه بعد ذلك هو تعريف الإمام الشافعي الذي يقول فيه : « الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية » .[4]

كما عرف ابن خلدون الفقه : « هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقّاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استُخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه ».[5]

روي عن معاوية بن أبي سفيان قال : « سمعت رسول الله يقول : يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ».[6]

وقد ورد عن النبي ﷺ عن فضل الفقه عن سائر العبادات، حيث قال النبي ﷺ: « تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ».

كما بيّن النبي ﷺ عن فضل مجالس الفقه على مجالس الذكر: دخل النبي ﷺ المسجد فرأى مجلسين، أحد المجلسين يذكرون الله والآخرون يتعلمون الفقه، فقال

رسول الله : « المجلسين على خير وأحدهما أفضل من صاحبه فجلس معهم »، وقال أيضا: « قليل من الفقه خير من كثير من العبادة ».

وقد ورد في حديث ابن عباس عن النبي ﷺ ، قال : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ».[9] وقد فُسِّرت كلمة « الحكمة » في قوله تعالى: « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ».[10] أنها الفقه.

سُئل أبو العباس أحمد بن يحي عن قوله تعالى : « وآتيناه الكتاب والحكمة »، فقال: « الحكمة فقه الشيء »، فقيل له: الكتاب غير الحكمة، فقال : « لا يكون حكيما حتى يعلم القرآن والفقه »، وقد وردت أحاديث وأخبار على جلالة الفقه والفقهاء؛ من ذلك : « الأنبياء قادة والفقهاء سادة ومجالسهم زيادة ».

وعن عكرمة عن ابن عباس قال: « من آذى فقيها فقد آذى الرسول ﷺ، ومن آذى الرسول فقد آذى الله ».

وروي عن علي بن أبي طالب أنه أمر تاجرا بالتفقه قبل التجارة، وقد ورد في بعض الأحاديث تصنيف مراتب الفقهاء والمتفقهين كما بيّن العلماء مواصفة الفقهاء الذين يُتعلم منهم، وقالوا : « ينبغي للمتعلم أن يقصد من الفقهاء من اشتُهر بالديانة، وعُرف بالستر والصيانة ».[11]

وورد عن محمد بن سيرين أنه قال : « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم »، فيكون قد رسم نفسه بآداب العلم من استعمال الصبر، والحلم والتواضع للطالبين، والرفق بالمتعلمين ولين الجانب، مداراة الصحب، وقول الحق، والنصيحة للخلق، وغير ذلك من الأوصاف الحميدة والنعوت الجميلة، وقال علي بن أبي طالب: « يا طالب العلم إن العلم ذو فضائل كثيرة فرأسه التواضع، وعينه البرادة

من الحسد ، أذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأشياء والأمور الواجبة، ويده الرحمة، ورجله زيادة العلماء، وهمته السلامة، وحكمته الورع، ومستقره النجاة، وقائده العافية، ومركبه الوفاء، وسلامه لين الكلمة، وسيفه الرضا، وفرسه المداراة، وجيشه محاورة العلماء، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، وماؤه الموادعة، ودليله الهدى، ورفيقه صحبة الأخيار »، فيكون قد أخذ فهمه من أفواه العلماء لا من الصحف.

وذكر الحافظ البغدادي قائلا : أخبرنا ابن الفضل...عن سعيد بن سليمان، قال : « لا تقرؤوا القرآن على المصحفيين، ولا تأخذوا العلم من الصحفيين ».[11]

تعظيم المتفقه للفقيه وهيبته إياه وتواضعه له:

ورد عن جابر بن عامر الشعبي عن البراء بن عازب، قال : « لقد كنت اريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن أمر، فأؤخره سنتين من هيبته، ولقد كنت ألقاه كل يوم ». روي عن ابن عباس قوله: « مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة ».

وورد عن الشعبي أن زيد بن ثابت ذهب ليركب ووضع رجليه في الركاب، فأمسك ابن عباس بالركاب، فقال: « تنح يا بن عم رسول الله »، ثم قال: « لا هكذا نفعل بالعلماء والكبراء ».[12]

وقد ورد عن أحد العلماء قوله : « إذا تعلم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد فهو له عبد ».

ومن أدب العلم أن لا يكثر التلميذ على أستاذه بالسؤال، وأن يحفظ سره، والعالم أفضل من الصائم القائم الغازي في سبيل الله.

أحوال المبتدئ بالتفقه :

ينبغي للمبتدئ إذا حضر للتفقه أن يقرب من الفقيه حتى يكون بحيث لا يخفى عنه شيء مما يقوله، ويصمت ويصغي إلى كلامه، فقد ذكر البغدادي عن بعض العلماء: « إن أول العلم الصمت، والثاني حسن السؤال، والثالث حسن الاستماع، والرابع حسن الحفظ، والخامس نشره عند أهله ».

وقد قال الخليل: « حين أردت النحو أتيت الحلقة، فجلست سنة لا أتكلم، إنما أسمع، فلما كانت السنة الثانية نظرت، فلما كانت السنة الثالثة تدبرت، فلما كانت السنة الرابعة سألت وتكلمت »، ويلازم حضور المجلس، واستماع الدرس، وإذا مضى له برهة في الحضور وأنس بما سمع، سأل الفقيه أن يملي عليه من أول الكتاب شيئا، ويكتب بما يملي، ثم يعتزل، وينظر فيه، فإذا فهمه انصرف، وطالعه وكرّر مطالعته حتى يعلق بحفظه، ويعيده على نفسه حتى يتقنه، فإذا حضر المجلس بعد سأل الفقيه أن يسمعه منه، ويذكره له من حفظه، ثم يسأل الفقيه إملاء ما بعده ويصنع فيه كصنيعه فيما تقدم.(14)

وروي عن أبي حنيفة أنه جاء إلى حماد بن أبي سليمان يطلب الفقه، قال: « تعلم كل يوم ثلاث مسائل ولا تزد عليها شيئا حتى يتفق لك شيء من العلم »، فتعلم ولزم الحلقة حتى فقه، فكان الناس يشيرون إليه بالأصابع، وقيل أيضا: « على طالب الفقه أن يتثبت في الأخذ ولا يكثر، بل يأخذ قليلا قليلا، حسب ما يحتمله حفظه، ويقرب من فهمه »، فإن الله تعالى يقول: « وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ».(15)

وروي عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : « إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى ». ولا ينبغي أن يُستفهم من الفقيه حكم الفصل الذي يذكره له قبل أن يتمم الفقيه ذكره، فربما وقع له النسيان عند انتهاء الكلام، قال الله تعالى: « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ».[16]

وذكر بعض العلماء بمناسبة تكوين الفقهاء : أن من يريد الفقه و التفقه في دين الله، أن يكون فراغ القلب وكمال الفهم، لأنه إذا حضره ناعسا أو مغموما، أو مشغول القلب، أو قد بطر فرحا، أو امتلأ غضبا، لم يقبل قلبه ما سمع وإن ردّد عليه الشيء وكرّره، فإن فهِم لم يثبت في قلبه ما فهمه حتى ينساه، وإن استعجم قلبه عن الفهم كان ذلك داعية الفقيه إلى الضجر والمتعلم إلى الملل.

وكما ذكرت أن يلزم المتعلم افتقاده من نفسه، فإن على الفقيه مثيله، إلا أن المتعلم يحتاج أكثر مما يحتاج إليه الفقيه، لأنه يريد أن يسمع ما لم يكن يسمعه من قبل، والفقيه فهم لما يريد أن يلقيه حافظ لا يقصد أن يحكيه، [17] فإذا كان الفقيه من الحفظ والمعرفة، والمتعلم يريد أن يلقي إلى قلبه ما لا يعرفه، وقلبه نافر عنه، ونفسه تستثقل التعب، والإكباب على الطلب، فهو يحتاج إلى فراغ القلب أكثر مما يحتاج إليه الفقيه، ويحتاج إلى صبر شديد على الاستذكار والترديد، ولهذا قال الشافعي: « الناس طبقات في العلم، موقعهم من العلم بقدر رجائهم فيه، فحق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في إدراك علمه، نصا واستنباطا، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يدرك خيرا إلا بعونه...»

تحليل برنامج العلوم الإسلامية:

مقدمة:

وردت في ديباجة برنامج العلوم الإسلامية أن أسرة العلوم الإسلامية منذ إنشاء معهد العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر بمقتضى القرار الوزاري المؤرخ 1982/09/20 ما فتئت تقوم برامجها بما يتماشى والواقع الذي يعيشه العالم عموما والجزائر على وجه الخصوص.

وهكذا فإن برنامج العلوم الإسلامية منذ تاريخ إنشاء هذا التخصص منذ اثنين وعشرين سنة خلت محطات حساسة في طريق التقديم والتصحيح، انطلاقا من برنامج 1982 إلى آخر البرنامج الذي تم انجازه سنة 1997، وهذا البرنامج لم يعتمد من الوزارة حتى الآن.

حين نلاحظ البرنامج الذي وضع منذ 1982 ثم 1991 ثم 1997، نرى أن المواد الفقهية تتلخص كالآتي:

في **السنة الأولى**: يدرس الطالب علوم القرآن مع حفظ بعض أجزاء القرآن، علوم الحديث، فقه العبادات، فقه السيرة، التاريخ الإسلامي، المنطق، اللغة العربية واللغة الأجنبية.

وفي **السنة الثانية**: قسم الفقه وأصوله، علوم التفسير وعلوم الحديث، فقه المعاملات، أصول الفقه ومدخل لدراسة التشريع الإسلامي.

وفي **السنة الثالثة**: آيات الأحكام، أحاديث الأحكام، فقه الأسرة، الفقه المقارن، أصول الفقه.

وفي **السنة الرابعة**: آيات الأحكام، أحاديث الأحكام، مقاصد الشريعة، أصول الفقه، الفقه المقارن والفقه الجنائي، المواريث والوصية.

بعد أن رأينا البرنامج الأخير بعد التعديل الذي تم سنة 1997، هل يمكن استخلاص تصور علمي في ثنايا هذا البرنامج.

والسؤال الذي نطرحه هو هل يمكن من خلال تلك البرامج المقررة تكوين فقهاء في مذهب معين أو في مدرسة معينة كمدرسة مالكية مثلا، والذي يلاحظ على بعض طلبة الدراسات العليا عجزهم عن قراءة كتب فقه المتقدمين.

ومن المفترض أن يتدرب الطلبة في الحصص التطبيقية أو الأعمال الموجهة على قراءة كتب الفقه القديمة ليتمرس الطالب على فهم عبارات المتقدمين الذي يتسم أسلوبهم بالإيجاز والصعوبة.

وليس بخاف ما في هذه الوسيلة من جعل الطالب يقتدر على الاستفادة من مصنفات الأوائل من كتب التراث عامة، وهي غنية في مادتها.

ويلاحظ أيضا أن الفقه المذهبي لا يدرس إلا في السنة الأولى على ما فيه من نقص لأنه لا يغطي كل أبواب الفقه وإنما هو مقصور على قسم العبادات بل إن هذا القسم لا يحظى الطالب منه إلا بنزر قليل.

أما في السنوات المتبقية فإنه يدرس الفقه المقارن وليس معنى ذلك أنه يدرس كل مسائل الفقه دراسة مقارنة، وإنما هناك مسائل فقهية تعرض فيها مذاهب الفقهاء مشفوعة بالتدليل والتعليل، ولا شك أن الطالب الذي يدرس الفقه بهذه الطريقة لا يمكن أن تتربى فيه " ملكة الفقه" لأنه لا يمتلك قاعدة فقهية صلبة يمكن البناء عليها، لذلك احتاج الأمر إلى إعادة نظر، فالمطلوب هو تمكين الطالب من مذهب فقهي أولا

ثم يتدرج به إلى المذاهب الفقهية الأخرى مع الوقوف على أدلتها ومع المناقشة والترجيح.

والأمر الآخر وهو جدير بالتنبيه إليه هو ضرورة حث الطلبة في بحوثهم على الرجوع إلى أمهات الكتب في الفقه وعدم السماح لهم بالإعتماد على كتب المعاصرين إلا من أجل الاستئناس وهذا يساعد على تمكين الطالب من التعامل مع المصادر الأصلية مباشرة كما أن هذه الطريقة تنمي في الطالب الملكة الفقهية.

وما يقال عن مادة الفقه في هذه الملاحظات ينسحب على بعض المواد الرئيسية التي تخدم التخصص كمادة أصول الفقه واللغة العربية.

ملاحظة أخرى تتعلق بالحجم الساعي:

ضرورة جعل الحجم الساعي لمادة الفقه في الأعمال الموجهة ساعة ونصف، حتى يمكن تحقيق هذا الغرض، لأن ساعة واحدة مع العدد الكبير للطلبة في الفوج لا يمكن تحقيق هذا الهدف كما لا يسمح بمتابعة الطلبة.إن في دراسة كتاب فقهي قديم أو في إلقاء بحوثهم وتقييمها.

والأمور التي ينبغي تحاشيها في برنامج المقرر على طلبة العلوم الإسلامية ولاسيما في تخصص الفقه عدم تكثير المواد أو جعلها محاضرات وأعمال موجهة بل يكتفي بالمحاضرة دون الأعمال الموجهة كما هو الشأن في مادة التاريخ، فالأولى الاقتصار على الجانب النظري دون الأعمال الموجهة.

وحتى يواكب البرنامج المتغيرات المستجدة في الساحة العلمية والثقافية فإننا نرى ضرورة إدخال مادة " الثقافة الإسلامية" التي يمكن من خلالها معالجة بعض القضايا الجديدة الطارئة على الساحة العالمية كمسألة حقوق الإنسان مثلا أو موضوع العولمة.

وغير ذلك مما قد يطرأ من جديد، وهذا من أجل أن يواكب الطالب كل جديد وأن لا يكون منغلقا على نفسه أو مجترا الماضي غافلا عن الحاضر والمستقبل.

وإذا نظرنا إلى المدارس القديمة في بداية تكوين هذه المدارس نجد أن الطالب يكون ملَكته الفقهية من خمس إلى تسع سنوات من هذا التخصص، وقد قال العلماء أن طلب العلم من مجالس العلماء المختلفة لا يكوّن الملَكة العلمية التي ينشأ عليها الناشئ بل لابد من ملازمة (...) عالم من بينهم، وأن يختصه بكثرة الملازمة وقتا يتم فيه تحصيله وتكوينه، حتى إذا تخرج عليه، اتجه إلى الدراسة حرا، بعد أن يكون عنده من العتاد العلمي ما يمكنه من الاستقلال الفكري.

وقد قال أبو حنيفة عندما سُئل كيف تعلم ودرس: « كنت في معدن العلم والفقه، فجالست أهله ولزمت فقيها من فقهائهم ».

الهوامش

1- الحديث متفق عليه، وقد أخرجه البخاري في كتاب العلم، ومسلم في كتاب الإمارة.

2- الآية 122، التوبة.

3- الآية. 9، هود.

4- الرسالة للإمام الشافعي صـ103.

5- تاريخ العلاّمة ابن خلدون، المجلد الأول 2 صـ798.

6- كتاب الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي صـ1 جـ1.

7- كتاب الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي صـ9 جـ1.

8- نفس المصدر صـ10 جـ1.

9- نفس المصدر صـ21 جـ1.

10- نفس المصدر صـ96 جـ2.

11- نفس المصدر صـ97،98 جـ2.

12- نفس المصدر صـ90 جـ2.

13- نفس المصدر صـ99 جـ2.

14- نفس المصدر صـ100 جـ2.

15- الآية 32 ، الفرقان..

16- الآية 114، طه .

17- نفس المصدر صـ102 جـ2.

18- مالك لأبي زهرة صـ31